هل هناك حراك شبابي حقًّا في فلسطين؟

جبريل محمّد*

عُرف مصطلح "الشباب" كمفهوم واسع الانتشار في الأراضي الفلسطينية، إبّان الانتفاضة الكبرى عام 1987، فقد تكرر المصطلح بين وسائل الإعلام المحلية والأجنبية، ليدلل على المنتفضين المنطلقين في شوارع المدن وحواري القرى متصدين لدوريات الاحتلال، أو في نشاطهم الاجتماعي الاقتصادي كمراقبة مقاطعة البضائع الإسرائيلية، أو مساعدة الأسر المحتاجة، والمشاركة الفعالة في بناء البيوت التي هدمها الاحتلال أو الانخراط في تطوير المزرعة البيتية، "جاء الشباب أو ذهب الشباب أو خرج الشباب في مظاهرة"، كانت التعبيرات الأكثر سلاسة وتلقائية على ألسن الناس في تلك الأيام.

وللحقيقة فإن دور الشباب في الانتفاضة الكبرى لم يكن منقطعًا عن جذوره الممتدة إلى تربة خصبة من العمل الشعبي الجماهيري العام قبل انطلاق الانتفاضة، لا بل إنه استمد من انخراطه في المنظمات الطلابية واللجان التطوعية والنقابات العمالية خبرة ومعرفة استخدمها في نشاطه الانتفاضي، لتزيد ممارسته للعمل الميداني الانتفاضي من خبرته وتصقلها، لنكون إزاء حالة مثقفة ومستعدة للتضحية، إضافة لاستعدادها للانتظام العالي في المنظمات واللجان الشعبية التي تولدت في الانتفاضة. لقد سمح البعد الديمقراطي الشعبي العميق للانتفاضة الأولى بأن يكون دور الشباب محوريًّا، وأن تكون العلاقة بين الكادر الميداني والقائد الحزبي أكثر مرونة، جعلت من القائد الحزبي منظِّمًا ثانويًّا، ومن الكادر الميداني صاحبَ الإبداعات في أشكال المقاومة المختلفة. لقد تعلم القادة من العناصر كيف تدار المناشط

(الأنشطة) اليومية، وكيف يمكن تركيمها (مراكمتها)، وكان الشباب بهذا محورَ العمل الانتفاضي رغم شمول الانتفاضة لطبقات وفئات الشعب الفلسطيني كافة.

غير أن أثر التطورات الدولية والإقليمية -وأبرزها العدوان على العراق عام 1990- قد جعل من الانتفاضة الشعبية الفلسطينية حالة ثانوية أمام التحشيد العسكري على العراق وما نتج عنه من تسيُّد للقطب الأوحد (وهو أمريكا)، ودخول القيادة السياسية الفلسطينية إلى مفاوضات مدريد ومن ثَمّ الالتفاف عليها باتفاق صفقة أوسلو، الأمر الذي بدد مفاعيل الانتفاضة، وأحبط الشباب، لتبدأ مرحلة جديدة من العمل في أوساط الشباب قادتْها السلطة الوليدة، فقد بدأت السلطة بتجنيد العديد من نشطاء الانتفاضة في الأجهزة الأمنية، فضلاً عمّن حصلوا على وظائف مدنية، لتنتشر عدوى اللا مبالاة وروح الخلاص الفردي، ولينفضّ الشباب عن أطُرهم التي بنوها بجهدهم ليعبئ الفراغَ منظماتٌ أهلية اعتمدت خطابًا نيوليبراليًّا تجاه الشباب، تحت دعوى الحاجة إلى التثقيف المدني وحلول النزاعات الأهلية ومفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، التي -على أهميتها- لم تستطع أن تنتج حركة شبابية أو وعيًا شبابيًّا عامًّا ومهيمنًا، حيث أثبتت نتائج انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني عام 2006 أنّ كلّ جهد المنظمات الأهلية لم يتضح أثره في صناديق الاقتراع عبر التعبير عن ضرورة الحياة المدنية، الأمر الذي لا زال يثير إشكالية بحثية لا بد من التعمق فيها.

لقد أدى انسداد الحقل السياسي الفلسطيني إلى حالة من الاحتقان وجدت في كارثة الانقسام متنفَّسًا لها، مما عمق اللا مبالاة والإحباط لدى الشباب، وعزز لديهم العزوف عن العمل العام، والسعي نحو مزيد من دروب الخلاص الفردي حتى كان ما عُرف بالربيع العربي، والذي كان قوامه الأساس الحراك الشبابي من أبناء الفئات المتوسطة والذين يمتلكون ثقافة ومعرفة متوسطة أو جيدة، لتستطيع هذه الحراكات -وخاصة في مصر وتونس- أن تهز عروشًا يئس كل السياسيين من إمكانية اهتزازها. ومع انتصار الثورة في مصر وسقوط مبارك، خرج الشباب الفلسطينيون عفويًّا إلى شوارع رام الله بأسماء حراكات مختلفة في مظاهرة كبيرة، ليحتفلوا بنصر المصريين، معبرة عن أملها في أن انتصار الثورة

المصرية لا بد أن ينعكس إيجابيًّا على القضية الفلسطينية، لكن المظاهرة كانت عاجزة عن رفع شعار واحد محدد للشباب الفلسطينيين يعبّر عن رغباته أو طموحاته، سواء في المجال الوطني التحرري أو في المجال الاجتماعي الديمقراطي. لقد تعددت الشعارات، وكانت مرتجلة، ولم يبرز شعار واحد على الأقل يشكّل ناظمًا للمظاهرة.

إلا أن مظاهرة الاحتفال بانتصار الثورة المصرية، ومعها التونسية، شكلت محفزًا لدعوات تشكيل حراكات شبابية فلسطينية، سواء نبع ذلك من مبادرات شبابية فردية، أو من متطوعي منظمات أهلية، أو من أحزاب ديمقراطية ويسارية. لكن سرعان ما انكشف تشتّت الشباب وضحالة وعيهم، رغم استخدام الشباب بمختلف توجهاتهم كلَّ وسائل وأدوات التدريب التي تلقوها من منظمات أهلية مختلفة، فقد أظهروا عجزًا واضحًا عن استلهام معيقات استكمال هذه الثورات، وهي غياب القيادة الناظمة للعمل، وغياب الشعارات الموحِّدة للجهد والموجِّهة له. دفعت حالة الارتباك هذه قيادةَ السلطة وتيارها المركزي إلى احتواء هذا الحراك وشَرذمته، وحصره في مواجهة الاحتلال ضمن المظاهرات الأسبوعية في بلعين ونعلين والنبي صالح وغيرها.

أما القوى السياسية التي -وإن ظهرت كداعمة للحراك- كانت تعمل على تقويضه من الداخل، من خلال الاختلاف على الشعارات ومحاولة تجيير الحراك لصالحها، فمنهم من طرح ضرورة التصدي للانقسام وإنهائه، ومنهم من عوَّمَ الموضوع تحت شعار "الشعب يريد إنهاء الاحتلال"، ومنهم من راح يطالب بالديمقراطية، وكثير من الشعارات التي لم تكن مدروسة أو قادرة على تجميع كتلة شبابية حول قضية معينة وحاسمة قابلة للتطبيق. ولم نجد حتى الآن حراكًا شبابيًّا يطرح حقوقًا اقتصادية اجتماعية خاصة بهذه الفئة -كالحق في العمل أو السكن وغيره.

حتى في معركة إضراب الأسرى الإداريين عن الطعام، لم نلاحظ حراكًا شبابيًّا واسعًا، أو مشاركة جِدّيّة للشباب في خيام الاعتصام، بالرغم من أن الأسرى ليسوا قضية خلافية، كما لم نجد حراكًا شبابيًّا فعالاً

ومستقلاً يساند نضال الأسرى. كذلك إننا نعيش حالة من جنون الاستيطان وعدوانه، لكننا لا نجد شبيبة تتصدى بشكل منظَّم وواعٍ لردع عربدات المستوطنين.

شكّل اختطاف الفتى محمد خضير وحرقه حيًّا من قبل المستوطنين شرارة كادت تشعل الأراضي الفلسطينية، وأظهر شبان القدس وضواحيها استعدادًا نضاليًّا عاليًا وقدرة على إرباك السلطة المحتلة؛ فقد استطاعوا شل الحركة في مدينة القدس لعدة أيام، كما استقطبوا حالة تضامن واسعة بين فلسطينيي 48 أربكت السلطة الإسرائيلية، ولولا أنها نفست الأمر في شن الحرب المجنونة على قطاع غزة لامتد الأمر إلى الضفة الغربية، غير أن دخول الحرب المسعورة على قطاع غزة حوّل اتجاه الحركة من المشاركة الفعلية إلى أعمال تضامنية مرتفعة الوتيرة، لكنها لم تَرْقَ إلى انتفاضة عامة وشاملة بقيادة وبرنامج يومي.

علاوة على هذا، لم يبرز الحراك الشبابي بروزًا فعليًّا في الفعاليات التضامنية مع القطاع، بل إن ما جرى هو انخراط عمليّ مع حالة عامة شاركت فيها القوى السياسية ومنظمات المجتمع المدني، فلم نجد بيانات أو إشارات تدل على قوى شبابية متميزة داعية وقائدة لهذا التحرك الجماهيري، بل انخرط الجميع في حالة تضامنية عامة، وهو ما يكشف أن أي إطار تَشَكَّلَ وعنوانُه حراك شبابي لم يكن قد أعد نفسه لمثل هذه المتغيرات، وأن مستوى فعل الحراكات الشبابية قد خبا وارتضى أن يكون ضمن الحالة العامة لا قائدًا لها، أو محرِّكًا بارزًا فيها.

كل ذلك يجعلنا نستنتج أن الحراك الشبابي في الأراضي الفلسطينية المحتلة لم يكن سوى محاولة تقليد عاجزة للحراك الشبابي العربي؛ فهو حراك جاء كردة فعل، لكنه لم يقرأ جيدًا ظروفه وأولوياته، وبهذا أصبح فرصة للاستخدام السياسي من طامحين، أو حتى عنوانًا لتصفية حسابات كما جرى مع الحراك الذي هاجم سياسات فيّاض الإفقارية من دون نتائج ملموسة سوى تسوية بين التيار المركزي في الضفة وفياض.

الاستثناء الوحيد الذي نجح وعبر عن وعيٍ بالقضية، وتحضيرٍ جيد لإنجاح المهمة، هو حراك الشباب من فلسطينيي 48 ضد مخطط برافر؛ فقد أنجز هذا الحراك مهمة جزئية تمثلت بوقف القانون، ولو مرحليًّا، وتخفيض وتيرة التحرش في النقب، بينما -بالرغم من تعدد مسميات الحراك الشبابي في الضفة- لا نجد أثرًا ملموسًا لإنجاز حقيقي، حتى على صعيد بناء الحراك نفسه.

هل ربّما يعود ذلك لتهديدات السلطة وأجهزة الأمن؟ ولكن متى كان لحركة ريادية أن تخاف من تهديدات؟ هل ربّما يعود إلى احتواء الفصائل للحراك؟ ولكن من يعلن نفسه مستقلاً ويمثل قطاعًا عريضًا من المجتمع، لا يتأثر بعمليات الاحتواء. هل ربّما يعود الأمر إلى ضعف القيادة (وهذا هو الأرجح)؟ فالقيادة الإدارية التي تدرب عليها الناشطون تختلف عن قيادة الحراكات السياسية والاجتماعية، وضحالة الوعي الرؤيويّ جعلت الوعي التقني هو السائد، وتجريف السلطة وفصيلها القائد للمنظمات القاعدية بين العمال والطلاب وغيرها أدى إلى هذا الهزال القيادي.

إننا لا نقدم هنا صورة سوداوية لتعميم حالة إحباط، بقدر ما ننبه العاملين في أوساط الشباب إلى المعيقات والمحاذير والتحديات التي تواجه الريادة الشبابية؛ فهذه الأمور لا يستطيع التصدي لها إلا فورة عقلية وذهنية دفاقة من الإبداع الذي يكسر القوالب الجاهزة، وينأى عن التقليد والمحاكاة نحو إبداع يلائم ضرورات النهوض بالحركة الشبابية الفلسطينية.

* **جبريل محمّد**، باحث فلسطيني.